مجلة أبعاد ISSN : 2353 – 0030 EISSN: 2602-697X
مجلد 09، العدد 02، 2022

المقاربة اللسانية للدرس الأنثروبولوجي
من منظور فرضية "سابير- وورف"

The linguistic approach of anthropological study
according to "Sapir-Whorf" hypothesis

مصطفى بلبولة Mostefa BELBOULA*
فلسفة جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف- الجزائر
mostefabelboula@yahoo.fr

****

تاريخ الإرسال: 2021/09/20	تاريخ القبول: 2022/04/05	تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص: فرضية "سابير ـ وورف" فرضية في الأنثروبولوجيا واللسانيات فحواها أن لُغةَ كل مجموعةٍ بشريةٍ تنظم ثقافتها، أي إدراكَها للواقع والتمثلَ الذي تكوّنه عن العالم؛ فنظام تمثلاتنا الذهنية للعالم مرتبط سببيا بمقولات اللغة التي نتكلمها. وتتأسس هذه الفرضية . التي تبدو طرحا ثوريا قياسا باللسانيات البنيوية والوصفية . على مبدأين: الأول يقضي بأن ثقافة كل مجموعة بشرية تؤطرها اللغة التي تتكلمها، والثاني هو مبدأ "النسبية اللغوية" الذي ينص على أن الفكر تؤطره اللغة التي تعبر عنه وتُشْرِطُه، وهما مبدآن يتعارضان تماما مع التصور التقليدي للّغة. ويلزم عن هذين المبدأين أن اختلاف اللغات يؤدي بالضرورة إلى اختلاف في البنى الذهنية والعاطفية للأمم التي تتكلمها.

سنحاول أن نبرز هنا القيمة الإبستيمولوجية لهذه الفرضية التي تروم جعل الدرس اللساني مقاربة منهجية في الدراسات الأنثروبولوجية. فإلى أي حد استطاعت هذه الفرضية مقاربة المشكلات الأنثروبولوجية وتحقيق رهاناتها الإبستيمولوجية؟

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ اللسانيات؛ الأنثروبولوجيا؛ الثقافة؛ الفكر.

Abstract: "Sapir –Whorf" hypothesis is an anthropo-linguistic hypothesis according to which the language of each society conditions its culture. Therefore, the system of our mental representations of the world is causally linked to the categories of our language. This hypothesis, which seems to be revolutionary in relation to structural and descriptive linguistics, is based on two principles: the first is that the culture of each society is conditioned by its language; the second is that thought is framed by the language which expresses it. These two principles are opposed to the classical conception of language. It follows that the diversity of languages necessarily leads to the diversity of the mental and

* المؤلف المراسل: mostefabelboula@yahoo.fr

affective structures of nations. We will try to show the epistemological value of this hypothesis, which aims to adapt linguistics as a methodological approach in anthropological studies. So,: To what extent has this hypothesis approached anthropological issues and concretized its epistemological issues?

Key words: Language; Linguistics; Anthropology; Culture; thought.

مقدمة:

فرضية "سابير ـ وورف" فرضية في الأنثروبولوجيا واللسانيات بدأت تتبلور عندما شرع "بنيامين لي وورف" [1897 ـ 1941] في دراساته الأنثروبولوجية تحت إشراف "إدوارد سابير" [1884 ـ 1939]، فحواها « أن لُغةَ مجموعةٍ بشريةٍ ما تنظم ثقافتها، أي إدراكَها للواقع والتمثلَ الذي تكوّنه عن العالم .(DUBOIS, J, 1973, 514) » فنظام تمثلاتنا الذهنية للعالم مرتبط سببيا بمقولات اللغة التي نتكلمها. ومن هنا يبدو أن هذه الفرضية أُسِّسَت على مبدأين: مبدأ أول يقضي بأن ثقافة كل مجموعة بشرية تؤطرها اللغة التي تتكلمها هذه المجموعة، أما المبدأ الثاني فهو مبدأ "النسبية اللغوية" الذي ينص على أن الفكر تؤطره اللغة التي تعبر عنه وتُشْرِطُه، وهما مبدآن يتعارضان تماما مع التصور الذي لم يكن يرى في اللغة سوى نظام خاص مستقل عن العوارض الاجتماعية والثقافية. ويلزم عن هذين المبدأين أن اختلاف اللغات يؤدي بالضرورة إلى اختلاف في البنى الذهنية والعاطفية للأمم التي تتكلمها، وبالتالي فليس هناك عالم واحد يُعَبَّر عنه بلغات مختلفة، بل هناك عوالم مختلفة تتناسب مع اختلاف اللغات. فالواقع تبنيه العادات اللغوية لدى الجماعة بطريقة لاشعورية، وبالتالي فإن العوالم التي تعيشها الجماعات المختلفة هي عوالم مختلفة باختلاف لغاتها .

ويؤول هذا الارتباط السببي بين اللغة وتمثلات العالم إلى شكل من النسبوية الثقافية، تلك النسبوية التي غالبا ما نجهلها، لأننا نلجأ – بسذاجة - إلى عاداتنا اللغوية الثابتة من أجل الفهم الموضوعي لعالم التجربة، أو نتجاهلها لفرط ثقتنا في التعليم السوسيري الذي يعُدُّ اللغة بنية مغلقة ونظاما خاصا مستقلا عن العوارض الاجتماعية والثقافية. وبهذا، فإن هذه الفرضية تبدو طرحا ثوريا قياسا باللسانيات البنيوية والوصفية. (من اللافت للنظر أن هناك تشابها كبيرا بين محتوى هذه الفرضية وبين الآراء اللغوية والأنثروبولوجية لـ"فيلهم فون همبولدت" الذي عاش قبل دوسوسير، وهو تشابهٌ قد يدعو إلى الاعتقاد بأن صاحِبَيْها قد استوحياها منه إلى درجة أننا نستغرب ألا

يكونا قد اطلعا على آرائه وتأثرا بها. ومع ذلك فإن كثيرا من الفلاسفة والألسنيين يستبعدون المرجعية الهمبولدتية لهذه الفرضية. وما يعزز هذا هو أن "وورف" لا يشير إلى"همبولدت" ولا يحيل إليه البتة في حين أنه يُشيد بأعمال "أنطوان فابر دوليفِه" مثلا الذي عاصر "همبولدت"، وهو كاتبٍ أقل شهرة منه. ولكن رغم تعذر إثبات المرجعية الهمبولدتية لهذه الفرضية، فإن القرابة بين مضمونها وبين آراء "همبولدت" حقيقية لا يمكن إنكارها).

وسنحاول أن نبرز هنا القيمة الإبستيمولوجية لهذه الفرضية التي تروم جعل الدرس اللساني مقاربة منهجية في الدراسات الأنثروبولوجية. فإلى أي حد استطاعت هذه الفرضية مقاربة المشكلات الأنثروبولوجية وتحقيق رهاناتها الإبستيمولوجية؟

أولا: اللغة وثالوث "الثقافة؛ الفكر؛ الواقع" عند إدوارد سابير

1. اللغة وظيفة ثقافية:

يذهب "إدوارد سابير" إلى أن القدرة على الكلام لدى الفرد ترجع في الأساس إلى كونه يولد في بيئة ثقافية أكثر من كونها ترجع إلى عوامل طبيعية. فلو تخيلنا غياب الحياة الاجتماعية بالنسبة إليه، فإنه لن يتعلم الكلام أبدا، أي لن يستطيع تعلُّم كيفية التواصل وفق النظام التقليدي لمجتمع خاص. وعلى هذا الأساس يعرف "سابير" الكلام بأنه «نشاط إنساني يتغير بلا حدود بقدر ما ننتقل من مجموعة بشرية إلى أخرى، لأنه ميراث تاريخي صرف للمجموعة ونتاج لاستعمال اجتماعي طويل الأمد [...] فالكلام وظيفة مكتسبة غير غريزية؛ إنه وظيفة ثقافية» (SAPIR, E., 2001,). (يقصد "سابير" بالكلام هنا اللسان، ورغم أن "دوسوسير" [1857 ـ 1913] كان قد ميز في هذه الفترة بين الكلام واللسان، فيبدو أن التقليد السوسيري لم يكن قد ترسخ بعد في اللسانيات الأمريكية).

أما الاستدلال بالتشابه الموجود بين كلمات التعجب - رغم اختلافها بعضها عن بعض من لغة إلى أخرى - على أنها من أصل غريزي فمردود. ويعترض "سابير" على ذلك بأن نسبة هذه الكلمات إلى مجموع اللغة ضئيلة جدا، وليست ذات أهمية بالقدر الكافي الذي يدعم ذلك الزعم. ثم إن كل المحاولات التي سعت إلى إرجاع أصل اللغة إلى الغريزة كانت بلا جدوى، فليس هناك أية بداهة ملموسة تثبت بأن كل العناصر والعمليات اللغوية تطورت انطلاقا من كلمات التعجب التي «لا تمثل سوى نسبة ضعيفة من

مجموع الألفاظ، ولا تكتسي سوى أهمية ضئيلة من الناحية الوظيفية. فلا يمكن العثور، في أي زمن ولا في أية دائرة لغوية نعرفها، على اتجاه يستحق الذكر يجعل منها لُحمة أصلية للّغة، فهي ليست، في أحسن الأحوال، سوى زخرفة في أطراف نسيج واسع ومعقد» (SAPIR, E, 2001, 14,).

ويعترض "سابير" الاعتراض نفسه على الاستدلال بالكلمات المحاكية لإرجاع أصل اللغة إلى الأصوات الطبيعية، حيث إن عددها قليل مقارنة بالقاموس اللفظي لأية لغة. وحتى إذا كانت هذه الظاهرة موجودة في كل اللغات، فإن افتراض كونها ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى اللّغات البدائية افتراضٌ مشروع على المستوى النظري، أما الواقع فخلاف هذا أحيانا، إذ إن «الملاحَظ هو أن هذه اللغات البدائية ليس لها تفضيل خاص للكلمات المحاكية. فمن القبائل الأكثر بدائية في أمريكا، قبائل "أثاباسكا" التي تتكلم لغات يكاد يكون فيها هذا النوع من الكلمات غائبا أو هو غائب تماما، في حين أنها موجودة بكثرة في لغات متطورة مثل الإنجليزية أو الألمانية. إن مثالا كهذا من شأنه أن يبين بأن الجوهر الحقيقي للّغة لا ينبثق من مجرد تقليد الأصوات» (SAPIR, E, 2001,15).

إن هذه المعطيات في نظر "سابير" تفتح المجال لإعطاء تعريف مشروع للّغة، مستبعدا بذلك كل إمكانية بأن يكون مصدرها الغريزة، حيث يعرفها بأنها «وسيلة إنسانية محضة غير غريزية لتواصل الأفكار والانفعالات والرغبات بواسطة نظام من الرموز اخترعت لهذا الغرض» (SAPIR, E, 2001, 15).

وإذا كانت اللغة مرتبطة بصورة ما ببعض الأعضاء في الجسم، فلا يعني ذلك أنها وظيفة غريزية محددة بيولوجيا بصورة قبلية، لأن الوظائف الأصلية لهذه الأعضاء ليس هو الكلام، بل وظائف حيوية أخرى، وبالتالي فهي أعضاء مستعارة بالنسبة إلى اللّغة، «فلم يبقَ إلا عَدُّ اللغة نظاما متقنا يؤدي وظيفته داخل المركب النفسي أو الروحي للإنسان» (SAPIR, E, 2001, 18)، رغم أنه من غير الممكن إهمال هذا الجانب النفسي الفيزيولوجي في دراسة اللغة في صورتها المجسدة في الكلام.

وإذا ثبت أن اللغة وظيفة ثقافية، فإنها من جهة أخرى نظام رمزي فعال للتعبير عن محتويات الثقافة مهما بلغت درجة تعقيدها، فكل ثقافة تجد في اللغة أداة للتعبير، ولا يمكن أن نجد مادة لغوية غير محمّلة بالدلالة. ولا يعني هذا، في نظر "سابير"، أن اللغة أداة تعبيرية مستقبلة للدلالات فحسب، بل قد توحي هي نفسها بنوع من الدلالات التي لا ترتبط بالضرورة بمعطيات التجربة، « فبمجرد أن تتوطد صورة لغة معينة، فإنه

يمكن لهذه الصورة أن توحي للمتكلمين بدلالات لا يمكن ربطها - ببساطة - بكيفيات التجربة المعيشة وحدها، ويجب تصورها، إلى حد بعيد، من حيث هي إسقاط لدلالات افتراضية على هذه المادة الخام التي تتكون منها التجربة» (SAPIR, E, 1968, 345). ومعنى هذا أن اللغة تملك القدرة على تحليل معطيات التجربة المباشرة وعزلها لتجعل منها عناصر يمكن التصرف فيها وفق صورة جديدةٍ، مُحدِثةً بذلك ضربا من الاندماج بين الافتراضي والواقعي، وهو ما يسمح بتجاوز التجربة الفردية المباشرة والولوج في عالم مشترك؛ عالم الثقافة. فوظيفة اللغة إذن هي أنها أداة للكشف، من حيث إن صورتها توحي لنا بكيفيةٍ للملاحظة والتأويل، وهذا ما نفسر به تلك الفروق الدقيقة التي نجدها في الدلالة بين ثقافة وأخرى .

2. تلازم اللغة والفكر:

يذهب "سابير" إلى أن هناك ارتباطا وثيقا بين اللغة والفكر إلى حد يصعب عنده الفصل بينهما عمليا، فاللغة « تمتزج مع عاداتنا في التفكير بشكل معقد، ونحن - بمعنى من المعاني - أمام شيء واحد» (SAPIR, E, 2001, 263)، ويرفض التصور التقليدي للّغة الذي يرى فيها مجرد مدونة من الأسماء يتناسب عددها مع العدد نفسه من الأشياء، ويجده ساذجا. فاللغات بالنسبة إليه «هي أكثر من كونها مجرد أنظمة للتعبير عن الفكر؛ إنها مثل الألبسة الخفية التي تحيط بفكرنا وتعطي صورة دقيقة لتمثله الرمزي» (SAPIR, E, 2001, 267).

يمكن أن يعرَّف الفكر . في منظور "سابير" . بأنه المحتوى الخفي أو الطاقة الكامنة العليا للّغة، وبالتالي فإنه يتعذر تصور أي تولّد للفكر أو ممارسة يومية له بمعزل عن اللغة، فكلُّ زعمٍ بأنه يمكن التفكير أو الاستدلال من غير استعمالٍ للّغة هو وهْم لا غير. وفي المقابل، فإنه ليس بوسعنا أن نتخيل أن نظاما متقنا من الرموز اللغوية يكون قد تشكل قبل تكوُّن تصورات متمايزة وقبل الفكر الذي يستعمل هذه التصورات، بل « إن العمليات الفكرية تكون قد اتضحت كنوع من الطفح النفسي في بداية التعبير اللغوي تقريبا. وأكثر من ذلك، فإن التصور عندما يتحدد نهائيا يكون قد أثر بالضرورة على حياة الرمز [المعبِّر عنه] مساعدا بذلك على تطوره المستقبلي»(SAPIR, E, 2001,25) .

إن هذه العلاقة بين اللغة والفكر تنكشف لنا من خلال التفاعل المتبادل بينهما، فإذا كانت الوسيلة تجعل المنتَج ممكنا، فإن المنتَج يعمل على تطوير الوسيلة. فكل

تصور جديد يظهر للوجود إلا ويكون مصحوبا باستعمال مشوَّه لمادة لغوية قديمة، ولا يكتسب هذا التصور تمايزه ووضوحه إلا عندما يجد التعبير اللغوي الخاص به، «فبمجرد أن تُخترع الكلمة، نشعر ـ بصورة غريزية وبنوع من الارتياح ـ بأن التصور قد أخذ بالنسبة إلينا صورة مرنة، فَفَقَطْ عند امتلاكنا للرمز، نشعر بأننا امتلكنا المفتاح الذي يعطينا المعنى الدقيق للتصور» (SAPIR, E, 2001, 26).

إن الارتباط بين اللغة والفكر، في نظر "سابير"، يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن اللغة من أقدم مظاهر الثقافة الإنسانية، بل هي أقدمها على الإطلاق، بل يذهب "سابير" إلى الاعتقاد بأنها «سابقة حتى على تلك التجليات الأكثر بدائية للثقافة المادية، وأن هذه التجليات لم تصبح ممكنة إلا عندما تشكلت اللغة ذاتها من حيث هي وسيلة للتعبير والتواصل» (SAPIR, E, 2001, 32).

وتنعكس الخصوصية اللغوية حسب "سابير" في الإنتاج الأدبي، فبما أن اللغة هي وسيلة التعبير فيه، وبما أن كل لغةٍ ذاتُ خصائص مميّزة، فإن ما نجده من إمكانات وتحديدات ملازمة لأدب معين لن تكون أبدا هي نفسها في أدب آخر. فالأدب الذي تمت صياغته في قالب لغوي معين يصطبغ بسمات تلك اللغة، وعندما يحاول الأديب - الذي يكون قد ألّف في لغته الأصلية - أن ينقل ما كتبه إلى لغة أخرى عن طريق الترجمة «فإن طبيعة القالب الأصلي سرعان ما تظهر؛ فكل ما كتبه كان قد استلهمه بتبصر وحدس من عبقرية لغته الخاصة، ولا يمكن نقل هذه الإنجازات إلى صورة لغوية أخرى دون ضياع بعض العناصر أو تعديلها» (SAPIR, E, 2001, 268-269). ولكن "سابير" لا يغفل التمييز بين مستويين مختلفين في الفن الأدبي رغم تداخلهما؛ فنٌّ معمَّم لا يدين للتعبير اللغوي بشيء، وبالتالي يمكن نقله إلى لغة أجنبية دون أن يفقد أي شيء، وفن مرتبط بشكل خاص باللغة لا يمكن ترجمته (SAPIR, E, 2001, 268-269).

وهذا التمييز مشروع إلى حد بعيد في نظره، لأنه إذا كان الأدب يستخدم اللغة كوسيلة للتعبير، فإن لها مظهرين: محتواها الكموني أي المنتوج الحدسي لتجربتنا، والسمات الخارجية المميزة لكل لغة، أي الكيفية الخاصة التي تترجم بها تجربتنا. فإذا ميزنا بين هذين المظهرين، فإن الأدب الذي يستمد مادته بشكل أساسي من المظهر الأول، يمكن أن يترجم دون أن يفقد خصوصيته، وأما تلك الأعمال الأدبية التي ترتبط بالمظهر الثاني، فإنها تكون مستعصية على فعل الترجمة (SAPIR, E, 2001, 268-269).

وليس في هذا التمييز ما يدعو إلى العجب، إذ يمكن أن تصبح المسألة أكثر وضوحا إذا قارنّا بين الأدب والعلم. فالحقيقة العلمية خالية من البعد الذاتي ولا تتأثر في جوهرها بالوسيلة اللغوية الخاصة التي تعبر عنها، فمهما كانت اللغة المستعملة، فالأمر هو نفسه، ومع ذلك يجب التعبير عنها. وفي واقع الأمر، كل تصور لحقيقة علمية يتم وفق سيرورة لغوية، لأن الفكر ليس سوى اللغة نفسها بعد تجريدها من غلافها الخارجي، وبالتالي فإن وسيلة التعبير الملائمة لأية حقيقة علمية هي لغة معمَّمة ورمزية تكون جميع اللغات ترجمات لها، ولهذا فإن ترجمة العبارات العلمية لا تصطدم بأي عائق حقيقي لأنها ترتكز على عناصر كونية مستقلة عن كل خصوصية ذاتية. أما الأعمال الأدبية الصرفة فهي وثيقة الارتباط بصورة اللغة، وبخاصة في مجال الشعر، إذ من الصعب أن تحافظ الصورة الشعرية على أصالتها وقوتها عند نقلها إلى لغة أخرى.

إن كل نظام من الأنظمة الإيقاعية في الشعر مرتبط عضويا بخصائص لاشعورية وديناميكية لهذه اللغة أو تلك، فطبيعة الشعر الذي يمكن إنتاجه في هذه اللغة أو تلك تتحدد أساسا بنظامها الصوتي وإمكاناتها الديناميكية. فكل لغة هي في ذاتها فن تعبيري جماعي، يحتوي على سلسلة خاصة من العوامل الإستيطيقية، تتوزع بين الصوتي والإيقاعي والرمزي والمورفولوجي، حيث لا يمكنها أن تشترك فيها مع أي شكل تعبيري آخر. فكل فنان يجب أن يستعمل الإمكانات الإستيطيقية للغته الأصلية، وبالتالي مهما كانت قدرته على الإبداع الفني داخل لغته، فليس له أي فضل خاص في استعمال الكلمات الجميلة التي هي وقف على لغته. وفي هذا المستوى، نجد تفاوتا بين اللغات، حيث « إن هناك أشياء كثيرة تستطيع لغة ما التعبير عنها بدقة، في حين تعجز أخرى عن ترجمتها» (SAPIR, E, 2001, 273).

إن تأثير الصورة الخاصة باللغة على الإنتاج الأدبي لا ينحصر في المستوى الصوتي، إذ إن لخصائصها المورفولوجية مفعولا أكبر، حيث يتأثر الأسلوب الأدبي بشكل واضح بما تسمح به هذه اللغة أو تلك من إمكان التصرف في وضعية الكلمات بعضها بالنسبة إلى بعض داخل الجملة، كما يتأثر بكون اللغة لاصقة أو عازلة، أي ذات بنية تركيبية أو تحليلية.(تجدر الإشارة هنا مثلا إلى بعض الظواهر البلاغية في اللغة العربية من تقديم وتأخير وحذف وتقدير واعتراض ومداخلة في الكلام، حيث إن كثيرا من الصور الجمالية في القصيدة الشعرية العربية يكون مصدرها الخروج عن الصيغ المألوفة في تخريج

الكلام، وهو أمر تسمح به البنية الداخلية لبعض اللغات دون غيرها.). ومعنى هذا أن طبيعة الأسلوب وقوته ليستا راجعتين إلى عبقرية المبدع بل إلى عبقرية اللغة ذاتها التي تأخذ مجراها الطبيعي ولا تسمح للمبدع إلا بالنزر القليل لإبراز قدراته التي تعكس شخصيته. وهذا هو الأمر الذي يجعل بعض الميزات الراقية في لغة معينة تبدو عيوبا مقيتة بالنسبة إلى لغة أخرى. إن اللغة بالنسبة إلى "سابير" « هي في ذاتها فن جماعي للتعبير وخلاصة الآلاف والآلاف من الحدوس الفردية، فيها يذوب الفردي داخل الجماعي، ولكن التعبير الشخصي يترك آثارا نجدها في نوع من الحرية والمرونة الملازمتين لكل الإنجازات الجماعية للفكر الإنساني» (SAPIR, E, 2001, 278).

إن التفاعل بين الفردي والجماعي في اللغة يتمثل في أن هذه الأخيرة تنطوي على خصائص تعطيها قابلية استقبال فردية المبدع وتجسيدها، أي إن كل لغة تملك استعدادات ذاتية لاحتواء الإبداع الفردي، وبالتالي لا يوجد أي تفاضل بين اللغات على هذا المستوى، « وإذا لم يبرز أي كاتب [في لغة ما]، فلا ينبغي أن نعزو ذلك إلى قصور في اللغة، بل التقصير يقع على ثقافة هذا الشعب» (SAPIR, E, 2001, 279).

3. اللغة والواقع:

إن الطابع الرمزي للّغة لا يجعل منها نظاما معزولا ومستقلا عن التجربة المباشرة التي تحيل إليها باعتبارها مرجعا، بل هناك تداخل حقيقي بينهما، إذ إن الكلمات والأشياء يرتبط بعضها ببعض إلى حد يصعب علينا عنده في الغالب « الفصل الصريح بين الواقع الموضوعي والرموز اللغوية التي تحيل إليها، وتمتزج لدينا الأشياء والصفات والحوادث بالحدود التي نستخدمها من أجل الإحالة إليها» (SAPIR, E,1968, 35).

وبعبارات تحيلنا إلى مفهوم "رؤية العالم" بالمعنى الذي تحدث عنه "فيلهلم فون همبولدت" في كتاباته اللسانية والأنثروبولوجية يرفض "سابير" أن تكون اللغة، بحكم علاقتها بالعالم، مجرد علامات باردة حيادية شبيهة بتلك الرموز الرياضية، « فإذا كانت اللغة تحيل إلى التجربة وكانت، فوق ذلك، قادرة على أن تصوغها في قالبها وتفرض عليها تأويلا، فيجب أن ندرك أيضا أنها تستطيع أن تكون بديلا عنها» (SAPIR, E,1968, 36).

وبهذا المعنى، مهما كانت اللغة شبيهة بالرياضيات في رمزيتها، فهي ليست مجرد وسيلة بسيطة للإحالة المباشرة، حيث « إن استعمال بعض الكلمات ضمن سياق خاص يمكن أن يغير دلالتها المباشرة تغييرا جذريا. فـ"الرسالة" الواحدة تُؤَوَّل بطريقة مختلفة حسب الحالة النفسية التي يكون عليها "المُرسِلُ" تجاه محَدِّثيه، أو حسب التجليات السطحية

المعبّرة مثل الرغبة أو الغضب أو الخوف، والتي تشحن الكلمات بدلالة تتجاوز قيمتها الأخلاقية تماما» (SAPIR, E,1968, 36-37)، فكون جزء كبير من كلمات اللغة يمكنها أن تكون مشحونة بدلالات مختلفة، يوحي لنا بأن كل نشاط لغوي يفترض وجود مستويين يمكن الفصل بينهما، ويمكن أن نسميهما بشكل تقريبي نسقا مرجعيا ونسقا تعبيريا، أو لنكن أكثر جرأة فنقول نسقا إحاليا ونسقا إيحائيا .

ثانيا: اللسانيات والأنثروبولوجيا عند "بنيامين لي وورف "

1. ميتافيزيقا اللغة:

تنطلق أعمال "وورف" من اهتمامه الخاص باللغات الهندو- الأمريكية، وقد صاغ، رفقة "سابير"، الفرضية المعروفة باسميهما انطلاقا من دراسته للغة "الهوبي (le hopi) " أساسا (الهوبي أحد الشعوب الهندو . الأمريكية في جنوب غرب الولايات المتحدة الأمريكية). فهو يصرح ابتداءً من الصفحة الأولى من كتابه "اللسانيات والأنثروبولوجيا" بأنه توصل إلى نتيجة مفادها « أنه من غير الصحيح التسليم بأن الواحد من شعب "الهوبي" الذي لا يتكلم سوى لغة "الهوبي" وليس لديه سوى الأفكار الثقافية المتعلقة بمحيطه الخاص، يكون لديه مفهوم الزمان ومفهوم المكان نفسهما اللذان لدينا، وهما مفهومان غالبا ما يفترض أنهما ذوا مصدر حدسي، ويعتبران عموما كونِيَيْن. وبصورة خاصة، فليس هناك ذلك المفهوم أو الحدس العام للزمان الذي بمقتضاه يبدو هذا الأخير متصلا متدفقا بانتظام» (WHORF, B.L, 1967, 7).

إن هذا النص يكشف منذ البداية أن "وورف" يعتقد أن تمثلاتنا وإدراكنا للعالم يتحدد بـ"اللغة ـ الأم" التي نتكلمها، أي إن لغة شعب ما تعكس رؤيته الخاصة للعالم. وبالفعل، فإنه يؤكد أن دراسته المعمقة للغة "الهوبي" كشفت له بأنه لا يوجد فيها أي عنصر لغوي يرتبط بصورة مباشرة بمفهوم الزمن، فليس في هذه اللغة كلمات أو عبارات أو صور نحوية تحيل إلى التقسيم الذي نحدثه نحن في الزمان من ماضٍ وحاضر ومستقبل، أو ما يوحي بمفهوم الديمومة أو المدة الخ، فلغة "الهوبي" « لا تنطوي على أية مرجعية للزمن بطريقة صريحة أو ضمنية» (WHORF, B.L, 1967, 8).

ولما كانت لغة "الهوبي" هذه، وبهذه الصورة، قادرة على وصف كل الظواهر الكونية بطريقة براغماتية وصحيحة، فيلزم عن ذلك أن فكر "الهوبي" خالٍ تماما من كل مفهوم للزمن الذي يمر. ومن أجل عرض الصورة بوضوح بغرض التقليل من دهشتنا إزاء هذه

"الظاهرة الغريبة"، يشبّه "وورف" هذه الحالة بما تقدمه لنا الهندسات اللاإقليدية من وصفٍ لتشكّلات المكان بطريقة مضبوطة رغم مغايرتها للهندسة الإقليدية التي تبدو لنا أكثر بداهة، كما يشبّهها بنظرية "النسبية" في الفيزياء التي تصف لنا الكون بطريقة تبدو غير مألوفة وتختلف كثيرا عن الفيزياء الكلاسيكية. بالصورة نفسها، تبدو لغة "الهوبي" حاملة لـ"رؤية للعالم" غير مألوفة لدينا، وبالتالي « فإن هذه اللغة وهذه الثقافة تنطويان على ميتافيزيقا بالطريقة نفسها التي نتصور بها الزمان والمكان [...] إلا أن الأمر يتعلق بميتافيزيقا تختلف عن هذه» (WHORF, B.L, 1967, 8).

ويمكن توضيح هذه الميتافيزيقا ملخصةً في أنه لا وجود للزمن بالنسبة إلى الـ"هوبي"، وأنه ليس للمكان تلك الصورة التي تقدمه لنا بها فيزياء "نيوتن"؛ ذلك المكان المتجانس المدرك مباشرة بالحدس. إن هناك تصورات أخرى في نظام تمثلاتها بغرض وصف الكون بمعزل عن الزمان والمكان كما نتصورهما، ولا تتوفر لغاتنا على حدود وصيغ لفظية ملائمة للتعبير عنها. إن هذه التمثلات والتجريدات تبدو ذات طابع نفسي وصوفي، «وتترجَم في لغة "الهوبي" بصورة دقيقة، فيُعبَّر عنها أحيانا بألفاظ صريحة، ولكن غالبا ما تكون ضمنية في الصور النحوية وفي بنية اللغة، كما يمكن إدراكها في السلوك وفي الثقافة» (WHORF, B.L, 1967, 9).

إن كل لغة تحتوي حدودا وصيغا لفظية للتعبير عن حقل ذي مرجع كوني، تُبلوِر المسلّمات الأساسية لميتافيزيقا غير معلنة وغير مصاغة، وهي مسلّمات تحتوي فكرا متعلقا بشعبٍ أو ثقافة أو حضارة، مثل الألفاظ التي نعبر بها عن الواقع أو الجوهر أو السبب أو الحاضر أو الماضي الخ...، غير أن لغة "الهوبي" تكشف عن أنها ليست في حاجة إلى الألفاظ التي تعبر عن الزمان والمكان من حيث هما كذلك، ففي حين «أنه بالنسبة إلى لغتنا، تحتل ألفاظ من هذا القبيل مكانا واضحا في عبارات تدل على فكرة الامتداد وفكرة الظاهرة أو السيرورة الدورية [...] فإن لغة "الهوبي" حينئذ تستغني تماما عن فكرة الزمن في [استعمال] الأفعال» (WHORF, B.L, 1967, 19).

2. البعد اللغوي للتفكير:

إن المشكلة المتعلقة بطريقة التفكير وتكوّن الصور الذهنية لدى المجتمعات البدائية ليست مشكلة ذات طابع سيكولوجي صرف كما قد يُتَصَوّر، ولهذا فليس من الصواب أن يهمل الباحث في مجال الإثنولوجيا تلك الأسئلة المتعلقة بطريقة تفكير الشعوب البدائية ومقارنتها بطريقة تفكيرنا معتبرا إياها لغزا ذا طابع نفسي. إنها مشكلة ذات طابع

ثقافي في عمومها «تتعلق تحديدا بمجموعة من الظواهر الثقافية مهيكلةٍ بوجه خاص نسميها اللغة» (WHORF, B.L, 1967, 20).

وتعتبر الدراسات اللسانية في نظر "وورف" المسلك الأمثل لمقاربة هذه المشكلة، لأن الفكر، بالنسبة للألسني، ينطوي على عنصر لغوي هامّ ذي طبيعة بنيوية. ولهذا يمكن القول إن الفكر هو مجال اللغة بامتياز، كما يمكن عَدُّه الوظيفة اللغوية الأساسية .

والتفكير الصامت الذي لا يقوم على سند لفظي، في نظر"وورف"، لا يخلو من المظهر اللغوي كما قد يبدو، «فلا يتمثل هذا النوع من التفكير في استبعاد اللغة أو في الهمهمة بكلماتِ بطريقة غير مسموعة أو في انقباضات حنجرية لا صوت فيها» (WHORF, B.L, 1967, 25). فمثل هذا التصور لا يكون مستساغا إلا لدى العامة الذين لا يُولُون كبير اهتمام للاعتبارات اللغوية، ويجهلون أن إصدار الألفاظ نفسه يتعلق ببنية ثقافية معقدة، كما يغفلون عن الدلالات التي تحددها السياقات الثقافية، لأن الدلالة لا تنبثق من ألفاظ مجردة بل من العلاقات القائمة بينها. فإذا كانت الكلمات والمقاطع الصوتية هي ردود أفعال حركية، فإن العلاقات الموجودة بينها، وهي علاقات تنبثق منها الدلالة اللغوية، ليست كذلك. هذه العلاقات هي التي تشكل جوهر الفكر من حيث هو متعلق باللغة .

إن كوننا نتكلم دون بذل جهد كبير، مع عدم الوعي بمدى تعقيد الآلية التي تتدخل في هذه العملية، قد يكون سببا في تكوين تصورات خاطئة في هذا الشأن. فنظرا إلى السهولة الكبيرة في استعمال اللغة، تبدو لنا معرفتنا بها في منتهى البداهة، وقد لا نرى في المسألة أي غموض. والواقع أن هذه البداهة تحجب عنا حقائق كثيرة تماما كما ينخدع الإنسان العادي بالمعطيات الحسية المباشرة. فالإنسان العادي لا يدرك القوى اللغوية التي تؤثر فيه، فهو يعتقد أن فعل الكلام نشاط يتصرف فيه بطريقة متحررة من كل القيود، ولهذا فهو ليس في حاجة إلى إعطاء تفسيرات للآلية التي يتم وفقها هذا النشاط ما دام يستطيع التصرف فيه حسب ما تقتضيه الحاجات الاجتماعية. فهو يعتقد مثلا أنه يفكر في أمر ما ثم يعبر بكلمات عن تلك الأفكار، والواقع أن الكلام والتفكير عمليتان تنطويان على أسرار خفية لا يمكن الكشف عنها إلا بالدراسة العلمية للّغة.

ومن شأن هذه الدراسة العلمية تكشف عن أن صورة الأفكار محكومة بقوانين بنيوية حتمية لا شعورية، فالفرد يتكلم وفق بنى معقدة وغير مدركة داخلة في تنظيم لغته، يمكن الكشف عنها بمقارنة اللغات، وبالتالي فإن تفكيره يتم وفق البنية التي تنطوي عليها اللغة، « حيث إن كل لغة هي نسق كبير من البنى مختلفٌ عن الأنساق الأخرى، ينطوي على تنظيم ثقافي للصور والمقولات لا يسمح للفرد بالتواصل فحسب، بل أيضا بتحليل الواقع وملاحظة بعض أصناف العلاقات والظواهر أو إهمالها، وتوجيه استدلاله وتعيين مجال وعيه شيئا فشيئا» (WHORF, B.L, 1967,186-187).

ولما كانت هذه البنى لاشعورية، فإن الأفراد الذين يستعملون الأنساق المعقدة لِلُغةٍ ما بسهولة وطلاقة لا يدركون وجودها إلا بعد أن يتم إثباتها لهم وبصعوبة. إن الظواهر الكلامية الأساسية على المستوى الصوتي محكومة بنماذج غير نابعة من الوعي الشخصي. والأمر نفسه بالنسبة إلى المستويات العليا للّغة المتمثلة في التعبير عن الأفكار، فالتفكير عند الفرد «يتبع هو أيضا شبكة من المسالك التي رسمتها لغة معينة، وهي تنظيم يبرز بصورة نسقية بعض أوجه الواقع وبعض مظاهر الذكاء، ويُبعِد، بالصورة النسقية نفسها، أوجهًا ومظاهر أخرى هيأتها لغات أخرى للتمثّل» (WHORF, B.L, 1967, 193-194)، ولا يقع هذا التنظيم الذي يخضع له الفرد في تفكيره وتمثله للواقع بشكل كلي تحت سلطة الوعي، فنحن نُسقط العلاقات اللغوية على العالم دون أن نعي ذلك .

إن البحث العلمي الجاد في اللغات، المتحرر من الأحكام المسبقة، يكشف عن وجود ثقافات وذهنيات للشعوب تختلف عما هو معروف لدينا، « فالمقولات النحوية الخاصة بكل لغة، والتي تختلف من ثقافة إلى أخرى، تتوافق مع كيفيات [خاصة] في التقسيمات التي يخضع لها العالم وكيفية إدراكه. إن الطبيعة اللغوية لمقولات الفكر تستلزم أن كل لغة في تفردها تنطوي على ميتافيزيقا خفية » (CALME,C, 2002, 59)، وبالتالي فإن تنوع رؤى العالم عبر اللغات يدل على نوع من النسبية اللغوية الثقافية؛ حيث إن كل ثقافة تنظم العالم المحيط بها عن طريق لغتها الخاصة، وبذلك يصبح هذا العالم مختزلا في التفاعل القائم بين الكلام باعتباره خطابا وبين الفكر ضمن تمثل متميز. ولكن ليس من السهل دائما أن نستوعب تلك الفروق ولا أن نجد شيئا من الألفة والمعقولية في ما هو مغاير للغتنا ولكيفية تمثلنا للعالم، إذ إن الأمر يقتضي أن نغادر حدود لغتنا للتحرر من تلك الأطر التي تفرضها علينا. (في ظاهرة "الأضداد" في اللغة العربية مثلا، تكون بعض

الألفاظ دالة على المعنى ونقيضه في آن واحد، ويبقى السياق وحده هو المرجع لتحديد المراد. ومثال ذلك أن العرب تسمي "اللديغَ" (الذي لدغته أفعى) بـ"السليم"، والفلاةَ القفرَ بـ"المفازة" تفاؤلا. فهذه الأمثلة تعكس "رؤية" خاصة للعالم عند الإنسان العربي القديم، فكأنه كان يرى في الكلمة قوة سحرية تحدث تغييرا في الواقع بمجرد إطلاقها عليه، فيكفي أن نطلق كلمة "السليم" على اللديغ حتى يسلم، ويكفي أن نسمي الفلاة القفرَ "مفازةً" حتى تتحول من مهلكة إلى منجاة).

ويحيلنا "وورف" إلى الألسني الإيرلندي "جيمس بايرن (James BYRNE) [1820 . 1897] الذي يعتقد، حسب تعبير "وورف"، أنه «اكتشف وجود ارتباط متبادل بين بنية اللغة وبين صنفين من الذهنية، إحداهما ذات ردود أفعال مفاجئة وفكر سريع، أو بالأحرى سطحي، والأخرى ذات ردود أفعال أقل حيوية وتفكير بطيء لكن أكثر عمقا ورزانة» (WHORF, B.L, 1967, 42). وكان "بايرن" يرى أن الصنف الأول من الذهنية يرتبط عادة باللغات التي من الصنف التحليلي ذات المورفولوجيا البسيطة، في حين أن الصنف الثاني يتناسب أكثر مع اللغات التي من الصنف التركيبي ذات المورفولوجيا المعقدة. ولكن "وورف (WHORF, B.L, 1967, 43) "يبدي بعض التحفظ على هذه النظرية من حيث المادة اللغوية التي اشتغل عليها لا من حيث المبدأ، ويرى أن أبحاثا مثل هذه تقتضي دراسة عدد كبير جدا من اللغات وكل الأنساق النحوية الخاصة بها بطريقة علمية متحررة من كل الأحكام المسبقة المرتبطة بالمنطق النحوي التقليدي، وانطلاقا من المقولات والبنى الخاصة بكل لغة.

ولكن هل يؤول قول "وورف" بوجود تناسب بين بنية اللغة وطبيعتها وبين ذهنية من يتكلمها وتأييدُه المبدأ الذي بنيت عليه نظرية "بايرن" إلى القول بوجود تراتبية بين اللغات بحيث يكون بعضها أرقى وأكمل من بعض؟

في الحقيقة، يشجّب "وورف" الأحكام الجاهزة عند الإنسان المعاصر الناجمة عن فكرة التطور التي حجبت عنه الحقيقة، لأن الفكرة التي كانت لدى هذا الأخير عن اللغة وعن الفكر استندت إلى معرفة عدد قليل من أصناف اللغات، وهو ما عزز لديه الاعتقاد الخاطئ « بأن طريقة تفكيره واللغات الأوروبية التي اعتمد عليها تمثل أعلى نقطة لا يمكن تجاوزها وصل إليها تطور» (WHORF, B.L, 1967, 54). فرغم أن اللغات الأوروبية ـ القليلة نسبيا ـ والثقافات التي عرفت الحضارة الحالية، تبدو متجهة نحو

سيطرة كلية على العالم، سيطرةٍ قد تختفي معها مجموعات لغوية غير بارزة، فلا يوجد أي مبرر للاعتقاد بأن تلك اللغات تملك خصائص ذاتية تجعلها متفوقة على اللغات الأخرى، إذ يكفي، من أجل استبيان الحقيقة، «أن نقتحم، بطريقة علمية، دراسة اللغات المنطوقة، وبخاصة لغات أمريكا، حتى ندرك أن نظام العلاقات في كثير منها مُحْكَم ودقيق البنية بشكل يفوق ما هو موجود في اللغات الغربية. فإذا قارنّا التنظيم الصوري للأفكار في اللغة الإنجليزية أو الألمانية أو الفرنسية أو الإيطالية باللغات "الهندو-الأمريكية"، فإنه يبدو [في الأولى] غيرَ كافٍ» (WHORF, B.L, 1967, 55)، بل يذهب "وورف" أبعد من هذا (WHORF, B.L, 1967, 56)، معتمدا على دراسته المعمقة للغة "الهوبي"، وهو إنجليزي اللسان، إذ يرى أنه مما لا يقبل الجدل أن اللغات الأوروبية المعاصرة لا تستطيع أن تجاري تلك اللغة في قدرتها على التجريد وفي ملكتها الأكثر عقلانية على تحليل المواقف .

3. اللغة والسلوك:

يذهب "وورف" على خطى أستاذه "سابير" إلى أن هناك ارتباطا حقيقيا بين اللغة والثقافة والحياة النفسية، فالإنسان لا يعيش في عالم موضوعي فقط، ولا يعيش في خضم النشاطات الاجتماعية كما يتصورها الحس المشترك في العادة، بل تتحدد حياته بعناصر لغوية تُشرِطه، وبالتالي فإنه من الخطأ الاعتقاد بأننا نتكيف مع الواقع بمعزل عن اللغة، كما أنه من الخطأ اعتبار اللغة مجرد أداة مساعدة لمواجهة بعض المشكلات المتعلقة بالتواصل أو بالتفكير. وهو المعنى الذي عبّر عنه "سابير" الذي ينقل عنه "وورف" قوله (WHORF, B.L, 1967, 69) «إن الحقيقة هي أن العالم الواقعي ينبني لاشعوريا إلى حد بعيد على العادات اللغوية للجماعة [...] فالكيفية التي نستقبل بها معطيات حواسنا (البصر، السمع الخ...) تتحدد بنسبة كبيرة بالعادات اللغوية لمحيطنا، الذي يجعلنا مُهَيَّئِين لنوع من التأويل ». فاللغة عند "سابير" و"وورف" هي أكثر من كونها وسيلة للتواصل أو التعبير عن الأفكار، بل إننا نفكر باللغة وداخل اللغة التي تحدد كيفية إدراكنا للعالم، إنها حُبلى بـ"رؤية خاصة للعالم".

وإذا كانت اللغة هي التي تُشْرِطُ إدراكنا للعالم، فمن البديهي أن يكون لعناصرها تأثير على السلوك. وفي هذا المستوى يعتقد "وورف" أن للأسماء التي نلحقها ببعض المواقف تأثيرا على ردود أفعالنا وتصرفنا. ويذكر بعض الأمثلة التي استقاها من تجربته المهنية في إحدى شركات التأمين ضد الحرائق، وهي أمثلة تبدو ذات دلالة حقيقية في

هذا السياق، رغم أن هذا الميدان يبدو في ظاهره بعيدا تماما عن أن يكون ذا علاقة بالمشكلات اللغوية. فعوضا أن يركز "وورف" تحليلاته على الأسباب المادية الصرفة التي يمكن أن تنتج عنها الحرائق، افترض أنه يمكن أن يكون لبعض العناصر غير المادية دور في ذلك أيضا، حيث قاده التحليل الدقيق إلى بعض الاستنتاجات التي مفادها أن البيانات اللغوية الموجودة في هذا الموقف أو ذاك والدلالات التي تضمنتها كانت جزءا من مجموع الأسباب التي أدت إلى تلك الحوادث. فإذا قرأنا مثلا، العبارة الإرشادية التالية «صهريج بنزين»، فمن الأكيد أننا نأخذ احتياطات أكبر في هذا الموقف، أما إذا كنا أمام العبارة «صهريج بنزين فارغ»، فمن الأكيد أننا لا نأخذ احتياطات كبيرة تجاه هذا الموقف. وفي واقع الأمر، قد لا يكون هذا الموقف أقل خطورة من الأول، لأن «صهريج البنزين الفارغ» قد يحتوي على بخار أو غازات متفجرة. فمن الناحية المادية، هناك خطر، ولكن الإيحاءات الدلالية التي تتضمنها كلمة «فارغ» هي التي قد تجعلنا نفكر في غياب الخطر، إذ إن من إيحاءات هذا اللفظ وفق العادات اللغوية أن يكون مرادفا لـ"بدون مفعول"، "ساكن"، "سلبي"، "لاشيء" الخ. وهكذا، بدا له بديهيا «أن الدلالة التي اكتستها هذه الظروف في نظر الناس تكون شكلت أحيانا عناصر قد قادت إلى الكارثة، وعامل الدلالة هذا كان واضحا عندما تعلق الأمر بالدلالة اللغوية الكامنة في الاسم أو البيان اللفظي المتعلق عموما بهذا الموقف» (WHORF, B.L, 1967, 71). فهذا مثال واقعي يدل على كيفية الإشراط اللغوي للسلوك. والأمثلة التي يسوقها "وورف" على ذلك كثيرة.

إن ثالوث اللغة والثقافة والسلوك يشكل مُركَّبا من التأثيرات المتبادلة يمكن أن نتساءل بشأنه كيف نشأ تاريخيا؛ فهل سبقت البنى اللغويةُ المعاييرَ الثقافيةَ أم العكس هو الذي حدث؟ على العموم، لقد تطورت هذه وتلك بتوافقٍ، مؤثرةً بعضُها على بعض باستمرار. ولكن لما كانت اللغة ذات طبيعة نسقية، فإنها تشكل عاملا يحُدُّ من انتظام دورة التأثير المتبادل ومرونتها، ويأخذها في اتجاهات محددة بصرامة، حيث إن «مجموعة بنيوية بهذا المدى لا يمكنها أن تتحول إلى شيء جديد حقيقة إلا بصورة بطيئة، في حين أن كثيرا من الإبداعات الثقافية تحدث بوتيرة أسرع نسبيا. وبهذه الصورة، فإن اللغة تعكس التفكير الجمعي؛ إنها تتأثر بهذه الإبداعات والابتكارات، ولكن ببطء وفي حدود ضيقة جدا، في حين أن المبتكرين والمجددين يتلقونها كما هي ويخضعون لقوانينها» (WHORF, B.L, 1967, 110).

وإذا أخذنا معظم المجموعات اللغوية الكلاسيكية على ما بينها من اختلاف، فإن العملية التي نجم عنها المُركَّب اللغوي الثقافي الحالي فيها يبدو قديما جدا. فعلى سبيل المثال، إن النظام الذي يسمح بالتعبير عن وقائع غير ذات بعد مكاني بصيغ مجازية ذات دلالة مكانية هو نظام مثَبّت في اللغات القديمة. فكلمة "دِين" (religio) مثلا، في اللاتينية، تحيل في الأصل إلى واقعة فيزيائية تدل على "الربط" عُبِّر عنها بطريقة مجازية، فيكون بذلك قد حدث انزياح دلالي من المكاني (الفضائي) إلى غير المكاني، تحت التأثير الذي قد تكون مارسته الثقافة اليونانية ذات الطابع النظري التأملي على الثقافة الرومانية ذات الطابع العملي، وهي العدوى التي انتقلت إلى اللغات التي ظهرت بعد ذلك، حيث نجد فيها ميلا إلى محاكاة اللاتينية. إن هذه الظاهرة في نظر "وورف" «تعزز الرأي السائد بين بعض الألسنيين بأنه، في كل اللغات، يحدث انزياح الدلالة بشكل طبيعي في هذا الاتجاه» (WHORF, B.L, 1967, 111)، أي من المكاني إلى اللامكاني، وهو ما يفسر أيضا قناعة بعض المثقفين بأن التجربة الموضوعية تسبق التجربة الذاتية.

لكن هناك دلائل بأن العكس يحدث أيضا حسب "وورف"، إذ «إن كلمة "القلب" [في لغة "الهوبي"] تشكلت بصورة متأخرة ودون تأثير خارجي، انطلاقا من جذر يدل على "التفكير" أو "التذكر"» (WHORF, B.L, 1967, 111)، وهذا يعني أن انزياح الدلالة يأخذ أحيانا اتجاهه من اللامكاني إلى المكاني.

من هنا نستنتج أن المفاهيم التي لدينا عن معطيات التجربة مثل الزمان والمكان والمادة وما إلى ذلك، لا يُعبَّر عنها في جوهرها بالطريقة نفسها لدى الجميع، بل يتحدد ذلك بطبيعة اللغة التي أدت إلى تَشكُّلها، وأن هناك علاقة بين المعايير الثقافية والبنى اللغوية، ولا يتم الكشف عن هذه العلاقة «بتركيز الانتباه على المعطيات الكلاسيكية التي تزودنا بها التفسيرات اللغوية والإثنوغرافية والسوسيولوجية بقدر ما يكون بإجراء تحليل على الثقافة وعلى اللغة باعتبارهما كُلاًّ عندما تكون هذه وتلك قد تطورتا بتوازٍ لفترة تاريخية طويلة» (WHORF, B.L, 1967, 115).

خاتمة:

إن ذلك الصنف من علماء الأنثروبولوجيا الذين لا يرون في اللسانيات سوى بطاقية متخصصة محشوة بمعطيات تقنية مِلة ومنفِّرة، ولا يرون فيها سوى أداة ثانوية لا قيمة لها بالنسبة إلى الأنثروبولوجيا لَيَغفلون عن كون الوظيفة الجوهرية للّسانيات هي

البحث عن الدلالات. ولهذا، فليس من المبالغة في شيء، ولا من العبث أن يُعكَف على تسجيل تلك الفروق الدقيقة المتعلقة بالأصوات والألفاظ والبنى النحوية، لأن مثل هذا العمل الذي تقوم به اللسانيات يهدف في واقع الأمر إلى إلقاء الضوء على جوانب غامضة في اللغة، وبالتالي على جزء كبير من عالم الذهن ومن الثقافة ومن رؤية العالم الخاصة بجماعة بشرية معينة، وذلك بفضل الدقة التي يتميز بها علم الدلالات.

إن الفهم العلمي لِبُنَى اللغات المختلفة يفتح لنا نوافذ جديدة على العالم كما تدركه الشعوب التي تتكلمها، والتي قد تكون مغايرة بشكل جذري للغتنا، وتصبح تلك الكيفيات "الغريبة" لإدراك العالم مألوفة ومعقولة لدينا، وتسمح لنا برؤية الأشياء وفق منظور جديد، وسنكون، والحالة هذه، في وضع شبيه بتلك الصورة التي تقدمها لنا مونادولوجيا "ليبنتس" الذي يقول «إن كل جوهر بسيط (موناد)[.. .] هو مرآة حية تعكس الكون بصورة سرمدية. فكما أن المدينة الواحدة منظورا إليها من جهات مختلفة تبدو كما لو كانت مدينة أخرى، فإنه يبدو كما لو أن هناك عوالم مختلفة بسبب الكثرة اللامتناهية للجواهر البسيطة، رغم أن هذه العوالم ليست سوى منظورات لعالم واحد حسب وجهة نظر كل موناد» (LEIBNIZ, GW, 156-157)، حيث تصبح كل لغة بمثابة الموناد الذي يعكس العالم من زاويته الخاصة. فالمهمة التي يلحقها "وورف" بالدراسات اللغوية تتجاوز حدود اللغة، فهو يريد أن يجعل منها مسلكا آمنا للكشف عن رؤى العالم التي تحملها الثقافات والأمم، وبالتالي أسلوبا ذا نجاعة كبيرة في الأنثروبولوجيا، فهو يُلِحُّ على «أن الباحث الذي يُكِبُّ على دراسة ثقافة ما، مُطالَبٌ بأن يكون لديه تصور مثالي عن اللسانيات، يسمح له بمقاربة استكشافية لمشكلات علم النفس التي يمكن أن يكون قد تفاداها لحد الآن» (WHORF, B.L, 1967, 36).

إن اعتماد الأنثروبولوجيا على اللسانيات في فهم النشاط الذهني للإنسان البدائي يكتسي أهمية مزدوجة، فمن جهة، سيكون هناك تكامل بين الجهود التي تبذلها الدراسات في مجال الإثنولوجيا وبين علم النفس اللغوي، وهو ما يسمح بتحليل تلك الفروق الواقعية أو المفترضة الموجودة بين ذهنية الشعوب البدائية وبين ذهنية الإنسان المعاصر. ولتحقيق هذا المطلب، يقتضي الأمر إحداث تقارب بين الإثنولوجيا وعلم النفس اللغوي. ومن جهة ثانية، فإن التفكير اللغوي الموجَّه إلى فهم الوظائف الذهنية ستكون له علاقة بمستقبل النوع الإنساني، حيث يمكن للدراسات الأنثروبولوجية «أن

تساعد على التعجيل باللحظة [...] التي سيكون فيها الشروع في الدراسة السيكولوجية والثقافية لكل لغات العالم أمرا ممكنا وضروريا ومستعجلا في الوقت نفسه [...] وسنرى حينئذ معرفتها وقد استغنت بغزارة الحقائق الجديدة التي يحتويها هذا الحقل الذي ينتظر تسليط الضوء عليه»(WHORF, BL, 167, 49-50).

إن لّلسانيات إذن أهميةً بالغة في الدرس الأنثروبولوجي وعلم النفس إنْ هي أخذت هذا المنحى، وسيكون لها إسهام كبير في دراسة النشاط الذهني للإنسان، فهي في نهاية الأمر تُعنى بكل العلوم الإنسانية. فقيمتها تكمن في كونها تبحث في الدلالات، وستصبح، لهذا السبب، ذات طابع سيكولوجي وثقافي أكثر مع تطور المناهج العلمية، مع احتفاظها بدقتها التي تضاهي دقة الرياضيات في الحدود، تلك الدقة الناجمة عن الطابع النسقي للظواهر المتعلقة بالمجال اللغوي.

يبدو إذن الاعتماد على الدراسات اللغوية كسند لمقاربة المشكلات الأنثروبولوجية ذات الطابع الذهني أمرا مؤسسا ومشروعا، لأنها، إذا ما استُغلّت إلى أقصى حد، ستسمح بالكشف عن الصور الحقيقية لكثير من تلك القوى التي بقيت لحد الآن [بالنسبة إلى الباحث] منطقة محرمة لا يمكن الولوج إليها، وميدانا لنشاط ذهني غير مرئي وغير مادي .

إن من شأن هذه المعرفة التي ستمدنا بها مثل هذه الدراسات أن تلعب دورا حاسما في تاريخ البشرية، إذ إن جميع المشكلات المتعلقة بضرورة التواصل مع الغير والتفاهم المتبادل بين الناس، والحواجز التي تفرضها اللغات عليهم، والتسيير العقلاني لشؤون الناس الرامية إلى تفادي الصدام بينهم، وضرورة إيجاد توازن في العلاقات الإنسانية، كل ذلك متعلق بدراسة اللغة والفكر.

المصادر والمراجع:

1. DUBOIS, Jean, et autres, (1973) Dictionnaire de linguistique, Librairie Larousse, Paris.
2. SAPIR, Edward, (2001)Le langage, Introduction à l'étude de la parole, trad. S.M. Guillemin, éd. Payot et Rivages, Paris.
3. SAPIR, Edward, (1968) Linguistique, trad. Jean-Élie BOLTANSKI et Nicole SOULÉ-SUSBIELLES, éd. Gallimard.
4. WHORF, Benjamin Lee, (1967) Linguistique et anthropologie, trad. (de l'anglais) Claude CARME, éd. DENOËL, Paris.
5. CALAME, Claude, (2002/3) « interprétation et traduction des cultures », les catégories de la pensée et du discours anthropologiques, in: L'homme, éd. E.H.E.S.S., n° 163.
6. LEIBNIZ, Gottfried Wilhelm, (1991) La Monadologie, édition critique établie par Émile BOUTROUX, Librairie Générale Française, Paris